مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

تجليات التحديث وأثر المرجعيات المعرفية: دراسة نقدية لكتابات روّاد الأدب السعودي(*)

ولاء فايز سالم الخزاعي
أستاذ مساعد بقسم أدب ونقد
كلية اللغة العربية وآدابها
جامعة أم القرى - السعودية

*) تاريخ تسليم البحث 14/11/2025 تاريخ قبوله للنشر 20/1/2026
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

تجليات التحديث وأثر المرجعيات المعرفية: دراسة نقدية لكتابات روّاد الأدب السعودي

ولاء فايز سالم الخزاعي
أستاذ مساعد بقسم أدب ونقد
كلية اللغة العربية وآدابها
جامعة أم القرى - السعودية

الملخص

يتناول هذا البحث تشكّل التحديث في الثقافة السعودية، بوصفه بنية معرفية متجذرة في وعي الأديب وتواصله مع بيئته التاريخية والاجتماعية، وقد قام هذا التحديث على وعي نقدي استمد جذوره من التراث، وأعاد إنتاجه دون القطيعة معه، بخلاف الحداثة التي تُفرض من الخارج كقفزة فكرية تسعى لإعادة تشكيل الوعي وفق قيم العقل والفردية والحرية.

تتمثل إشكالية البحث في تمييز الحدود بين التحديث والحداثة، من خلال رصد ملامح التحديث في الأدب السعودي وصلته بالمرجعيات المعرفية، والتفاعل الثقافي مع الثقافة العربية، والاطلاع الواعي على الثقافة الغربية واستيعابها دون التماهي معها، مما أفضى إلى نشأة مشروع فكري متجذر في أصالته العربية.

ويتتبع البحث جهود رواد الأدب السعودي: (محمد حسن عواد)، و(محمد سرور الصبان)، و(حمزة شحاتة)، و(عبد الله عبد الجبار)، الذين أسهموا في بناء مشروع نهضوي استند إلى التجديد والمثاقفة الواعية مع الفكر الحديث، لتأسيس وعي أدبي متأصل في الثقافة، ومتفاعل مع الثقافات المعاصرة.

وتستند الدراسة إلى مقاربة تاريخية موضوعاتية للكشف عن المرجعيات المعرفية في كتابات الرواد ومسارات تفاعلهم مع الثقافة الحديثة، وتخلص إلى أن هذا التحديث لم يقم على قطيعة مع التراث، بل على استيعاب نقدي له، مما أسهم في ولادة نهضة ثقافية جديدة.

الكلمات المفتاحية: التحديث، المرجعيات المعرفية، رواد الأدب السعودي، النهضة الثقافية.

Manifestations of Modernization and the Impact of Epistemological References: A Critical Study of the Writings of the Pioneers of Saudi Literature

Walaa Fayiez salem Alkhuzaei
Professor Assistant, Department of Literature
and Criticism, Faculty of Language and Literature
Umm Al-Qura University, Saudi Arabia

Abstract

This study examines the formation of modernization in Saudi culture as an intellectual structure rooted in the writer's consciousness and his interaction with his historical and social environment. This modernization was built on a critical awareness derived from heritage and re-produced without breaking away from it—unlike modernity, which is imposed from the outside as an intellectual leap that seeks to reshape consciousness according to the values of reason, individuality, and freedom.

The research problem lies in distinguishing the boundaries between modernization and modernity. It explores the features of modernization in Saudi literature and its connection to epistemological references, the cultural interaction with Arab culture, and the conscious engagement with Western culture—understanding it without fully assimilating into it. This interaction ultimately led to the emergence of an intellectual project firmly rooted in its Arab authenticity.

The study traces the efforts of the pioneers of Saudi literature—Muhammad Hasan Awwad, Muhammad Surur Al-Sabban, Hamza Shehata, and Abdullah Abdul-Jabbar—who contributed to building a renaissance project based on renewal and conscious cultural exchange with modern thought. Their work established a literary awareness that is deeply connected to local culture while remaining engaged with contemporary global cultures.

The study adopts a historical and thematic approach to reveal the epistemological references in the pioneers' writings and the paths of their engagement with modern culture. It concludes that this modernization did not arise from a rupture with heritage, but rather from a critical understanding of it, which contributed to the birth of a new cultural renaissance

Keywords: Modernization, Epistemological References, Pioneers of Saudi Literature, Cultural Renaissance.

مقدمة:

تشكل التحديث في الأدب السعودي من بنية معرفية، تجذرت في وعي الأديب وتواصله مع بيئته التاريخية والاجتماعية، فالتحديث يُبنى من خلال وعي معرفي نتيجة تراكم معرفي من التجارب الاجتماعية والثقافية المتصلة، وهو ينبع من السياق الداخلي من خلال اتصاله بالتراث، ولا يدعو إلى القطيعة مع الماضي، بينما الحداثة الوافدة من الخارج تتخذ طابع الهيمنة المفاهيمية بصفتها قفزة جديدة وسريعة، تسعى إلى إعادة تشكيل الفكر وفق قيم الفردية والحرية والدنيوية، تتجاوز الماضي وتُقاطعه، من هنا يبرز الفرق المفهومي بين مصطلحي التحديث والحداثة. تتمثل إشكالية البحث في محاولة تمييز الحدود الفاصلة بين التحديث الأدبي بوصفه يستند إلى نقد التراث وإعادة إنتاجه، والحداثة التي تفرض نماذج فكرية جاهزة تقطع الصلة بالماضي.

تظهر أهمية البحث في سعيه لتحديد ملامح التحديث في الأدب السعودي، وصلته بالمرجعيات المعرفية المتباينة بين التراث الأصيل، والتفاعل الثقافي المعاصر، وتتبع جهود جيل رواد الأدب السعودي في بناء مشروع التحديث مواكبةً للتحولات السياسية والاجتماعية التي شهدتها البلاد في القرن العشرين، عند أدباء ومفكرين كـ (محمد حسن عواد)، و(محمد سرور الصبان)، و(حمزة شحاتة)، الذين لم يكتفوا بالإنتاج الأدبي، بل مارسوا أدوارًا تنويرية في الصحافة، والتعليم، والإصلاح الاجتماعي.

ينطلق هذا البحث من فرضية أن بناء التحديث لدى الأدباء الرواد جاء من خلال العودة إلى التراث، والمرجعيات المعرفية، والتفاعل الخلاق مع الثقافة العربية، والاطلاع الواعي على الثقافة الغربية، واستيعابها دون التماهي معها، مما أنتج مشروعًا فكريًا متجذرًا في أصالته العربية.

يسعى البحث للإجابة عن عدد من الأسئلة، أهمها: ما المرجعيات المعرفية التي اعتمد عليها الرواد في مشروع التحديث؟ ما سمات المرحلة الثقافية في خطابهم النهضوي؟ وكيف تجلى وعيهم النقدي في رسم ملامح التحديث وإرساء دعائمه؟

تتبع الدراسة مقاربة منهجية تاريخية موضوعاتية قائمة على آليتيْ الوصف والتحليل، للكشف عن المرجعيات المعرفية في كتابات الرواد، ومسارات تفاعلهم مع التراث والثقافات المعاصرة.

تناولت مجموعة من الدراسات الأكاديمية قضايا التحديث، والمرجعيات المعرفية، والثقافية في الأدب العربي والسعودي، من أبرزها ما يأتي:

مآزق التحديث في النقد الأدبي المعاصر، (عبد الله العشي)، مجلة علامات في النقد، النادي الثقافي الأدبي بجدة، العدد٧٦، أغسطس ٢٠١٣م، تحدث (العشي) عن مآزق المشهد النقدي العربي واضطرابه، لاستقباله عددًا كبيرًا من المناهج بمصطلحاتها، ومفاهيمها وخطاباتها، وتطبيقه إياها على القديم والحديث، وعلى الشعر والنثر، وأن حقيقة المشكلة تكمن في مفهوم التحديث ومضمونه وسياسته في النقد العربي، ويؤكد (العشي) أن أي مشروع تحديثي لا ينجح إلا إذا انبثق من الثقافة المحلية وتفاعل مع تراثها، وهو ما يتصل مباشرة بموضوع هذا البحث في إبراز خصوصية التجربة السعودية في التحديث الثقافي.

القول بين التحديث والحداثة والمعاصرة، (علا عزمي الشربيني) مجلة كلية التربية: جامعة المنصورة، العدد ١٠٩، الجزء الأول،٢٠٢٠م، تناولت الدراسة الفروق الجوهرية بين مفاهيم التحديث والحداثة والمعاصرة، وأن هذه المفاهيم والمصطلحات استخدمت بمعنى واحد، وبشكل عام على الحداثة، مع العلم أن المصطلحات الثلاثة مختلفة في معانيها ومدلولاتها. وقد ركزت على ضرورة استيعاب قيم التحديث دون الانسلاخ عن الخصوصية التراثية، وهو ما يلتقي مع توجه هذا البحث في رؤيته للتحديث الأدبي بوصفه فعلًا نابعًا من الوعي المعرفي لا القطيعة الفكرية.

المرجعيات الثقافية ودورها في تشكيل الدلالة بين مؤثثات التأصيل ومنطلقات التجريب – قراءة سيميولوجية في شعر جاسم الصحيح، (إبتسام علي الصبحي)، مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٣٠، العدد ١، ٢٠٢٢م، توضح الدراسة أن الواقع الشعري للقصيدة الجديدة في المملكة العربية السعودية يختلف باختلاف مرجعياتها الثقافية المؤطرة للمضامين الفكرية التي ينطلق منها أفق التجريب تأصيلًا وتجديدً، وتمثل هذه الدراسة بعدًا تطبيقيًا مهمًا لبحثنا؛ لأنها تبرز تداخل المرجعيات الثقافية مع التحديث الأدبي.

إن التحديث بوصفه– بنية تعبيرية ومعرفية– يتحقق عبر وعي الأديب القادر على إعادة تمركزه في البيئة الثقافية، ومن خلال استيعابه للتغيير والتحول الثقافي والحضاري ككل، وهو قائم على المثاقفة الواعية، والنقد البناء بصفتهما وسيلتيْن للوصول إلى مشروع نهضوي يتمسك بالهوية الثقافية العربية، ويربط الماضي بالحاضر، والقديم الأصيل بالجديد المعاصر، وذلك بالرجوع إلى المرجعيات المعرفية التي اعتمدها العلماء والأدباء في تشكيل رؤاهم الفكرية والثقافية، بحثًا وتنقيبًا عن الموروثات الدينية، والعلمية، والأدبية، والاجتماعية، محاولة منهم في تشكيل هوية فكرية جديدة، انطلاقًا من فهمهم الواعي للواقع والتاريخ، وارتكازًا على الوعي النقدي في مساءلة التراث، وتحريره من هيمنة التقليد، وإعادة إنتاجه وتجديده، وثورتهم على التقليد الجامد الذي يحول دون التجديد والتحديث.

إن التعريف الاصطلاحي للتحديث يعني الأخذ بالتطور العلمي والتقني، وإنشاء البنية التحتية للمجتمع في كل مجالات الحياة، فالتحديث إذن هو ما سار عليه جيل الرواد الأوائل في تجديد الأدب السعودي، فكلمة "التحديث" "Modernisation" تدل على الفعل والحركة والاندفاع نحو تحقيق نموذج ما وصولًا إلى حال أو وضع متطور عن نقطة المنطلق، كما تدل الكلمة على ذات فاعلة وعلى واقع يمارس فيه فعل الذات، وعلى حيز زمني يتحرك فيه الإنسان من الأدنى إلى الأعلى ومن القديم إلى الجديد" (سمير، ٢٠٠٩، ٥) إذن فهو عملية حركة مستمرة تسعى إلى الانتقال من وضع تقليدي جامد، إلى وضع تجديدي متحرك، تشمل هذه العملية عدة مجالات، مثل: التعليم، الفكر، الثقافة، السياسة والاقتصاد، وتبنى على أسس مرجعية نابعة من التراث الأصيل ومتصلة بالحاضر المعاصر، تنقب فيه وتنتقده لكونها استجابة تاريخية لتحولات الفكر ومتطلباته، فـ"التحديث ضرورة تاريخية وثقافية وحضارية، لاستمرار الكائنات والأفكار، معظم الأفكار في الأدب وفي غير الأدب لا تولد من عدم، بل يعاد إنتاجها من خلال عمليات التحديث، والتحديث استجابة آلية لمنطق التاريخ يتم في مفاصل تاريخية معينة" (العشي، ٢٠١٣، ٧٤)، ومن ثَمّ يعتمد التحديث على النقد في إعادة إنتاج الأفكار والمعاني.

يؤكد (محمد عابد الجابري) في مشروعه النقدي والفكري أن التحديث متصل بالتراث وممتد منه، كأصل ثابت للثقافة العربية، فلا ينبغي القطيعة مع التراث، بل إعادة بنائه وإنتاجه من جديد، من خلال قراءة نقدية

واعية له، تنقب في أعماقه عن البنى المعرفية، وفي ذلك يقول في كتابه التراث **والحداثة**: "الحداثة من أجل الحداثة لا معنى لها، الحداثة رسالة ونزوع من أجل التحديث، تحديث الذهنية، تحديث المعايير العقلية والوجدانية" (الجابري، ٢٠١٥، ١٧).

أما الحداثة فهي حالة حضارية مغلقة ومقطوعة الصلة بأسباب الماضي وآثاره، لما صاحب هذه السيرورة من أحداث وصراعات دينية مع الكنيسة وعصر الأنوار والثورة الصناعية، فكان لا بد للمناهج النقدية أن تحمل آثارًا من فلسفتها وتصوراتها (سمير، ٢٠١٧، ١٧). وهي حركة معاكسة للماضي، وانقلاب على كل معالمه ودلالاته، وانفصال الحديث عن القديم وانقطاعه عنه، وعن الطرق التقليدية لفهم الواقع، وإحلال أنماط معرفية وفكرية جديدة (بوزبرة، ٢٠١١، ٣٩). وهي مشروعٌ فكريٌ وفلسفيٌ نشأ في الغرب مع التحولات العلمية والعقلانية لعصر التنوير، وتقوم على إعادة بناء الفكر وفق قيم العقل والحرية والفردية، وهي رؤية شمولية تسعى إلى تجاوز الماضي وإعادة تشكيل الواقع بناءً على أسس جديدة(حمودة، ١٩٩٨، ١٥-١٧).

تتمثل المرجعيات المعرفية في هذا السياق في مجموعة من عناصر المعرفة مثل: الدين، واللغة، والأدب، والتاريخ والسياسة، والاجتماع، وهي المصادر الثقافية التي يستند إليها الأديب أو المفكر في تفسيره للظواهر الفكرية والفنية، وبناء رؤيته للواقع، وهي الأساس الذي تتكون منه تصوراته للمعرفة، وتتشكل على إثره مواقفه النقدية والإبداعية. والمرجعيات "هي الوعاء المعرفي الذي يغترف منه المبدع ثقافته ومعارفه من مخزون الأمة الثقافي، أو هي نتاج اهتماماته وتجاربه المعاشة"(الصبحي، ٢٠٢٢، ٣٤٣). والمعرفة " هي خلاصة الممارسات العقلية للإنسان، تتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومثاقفة مع أطر ثقافية وحضارية أخرى، بسبب الحاجة، أو بفعل الاتصال"(إبراهيم، ٢٠٠٤، ٥٥٩). وبهذا التفاعل بين المرجعيات المعرفية، والوعي التاريخي، تولد وعي جديد بالذات والواقع، مهد لظهور حركة فكرية أكثر انفتاحًا على مفاهيم التحديث والنهضة، متصلة بالمشروع الوطني لبناء الدولة السعودية الحديثة، حيث تفاعل الأدب والأدباء مع التحولات الاجتماعية والفكرية.

المبحث الأول: التحديث والنهضة: تفاعل الأدب مع مشروع بناء الدولة السعودية

لقد كان مشروع بناء الدولة الحديثة الموحدة في المملكة مشروعًا في التحديث، ويكمن وراءه وعي بشروط التغيير ومتطلباته (الغذامي، ٢٠٠٨، ٣٩). ويؤرخ (منصور الحازمي) لبداية النهضة الحقيقية للفكر والأدب في بلادنا بتأسيس الملك عبد العزيز آل سعود للمملكة العربية السعودية، مستعرضًا الحالة الثقافية والفكرية قبل توحيد المملكة، وضعفها وجمودها، مشيرًا إلى جهود المؤسس في كافة الميادين: السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية وغيرها التي لابد منها لنهضة أمة من الأمم. إن الحقائق التاريخية الموثقة لتأليف كتب رواد الأدباء فيما يخص الإصلاح الفكري والاجتماعي، وإطلاق العنان لآرائهم في تحسين وتطوير البيئة الثقافية والفكرية، واضح في مؤلفاتهم، فـ(الصبان) مثلًا ينتقد التعليم والأدب وجمودهما، ويشجع الناشئة ويدعوهم إلى الكتابة والإبداع، (الصبان، ١٣٤٤هـ، ٣) و(العواد) يدعو إلى التطوير في مجالات شتى مثل: الحج ومؤسساته، تمكين المرأة، وتعلم الإنجليزية وغيرها (ياسين، ٢٠١٢، ٨٤، ٨٩، ١٠١).

وكذلك كتاباتهم في الصحف والمساجلات الشعرية التي ساعدتهم على تقديم الآراء، وتقبل الاختلافات الفكرية، فقد كانوا يختلفون على صفحات الجرائد، ويلتقون بقلوب صافية في حياتهم اليومية، وكان المثقفون أيضًا يتحرون هذه السجالات والاختلافات، وربما كان ذلك تقليدًا لما كانوا يطالعونه في صفحات الثقافة المصرية، كما عبر عن ذلك (منصور الحازمي) بقوله: "كانت بلادنا تولد من جديد، وكذلك كان أدباؤنا الذين عاشوا تلك الحقبة التاريخية وشاهدوا ما يحدث فيها من تحول وتطور... لقد ملأت الأحداث نفوسهم وشعروا بشيء غير قليل من الزهو والاعتزاز".(الحازمي، ١٩٧٥، ١٢)، وقد أصاب (إبراهيم الفوزان) في قوله: "ومن المتفق عليه بين مؤرخي الحضارات أن الأدباء هم أول من ينذرون حياتهم من أجل حرية الفكر، وحرية الإنسان، وحرية الأوطان في ظل التعاليم المتطورة؛ لأنهم رسل التبصير والرجاء لمجتمعاتهم في كل العصور" (الفوزان، ١٩٨١، ١٤٥)، وقد كان أدباؤنا يدركون حجم مسؤوليتهم الاجتماعية والثقافية، وهم على وعي بما يحملونه من فكر ورغبة في تجديد الأدب والمجتمع، فساروا متكاتفين بعزم، لتحقيق غايتهم في الارتقاء والنهضة.

يعد تتبع التحديث في الحركة الثقافية في المملكة العربية السعودية وخصوصًا في الحقبة التي سبقت تأسيسها، ولا سيما عند جيل الرواد الأوائل في الحجاز الذين عاصروا أواخر العهد الهاشمي وبداية ضم الحجاز إلى نجد وملحقاتها في عهد المؤسس الملك (عبد العزيز آل سعود) -رحمه الله- ضرورة لكشف المرجعيات المعرفية التي استقى منها جيل الرواد في الأدب السعودي، ومن ثَمّ لا يعد التحديث مفهومًا مقتصرًا على النسق المعرفي والثقافي، وإنما ينسحب على جميع الأنساق الحضارية.

وقد نشرت مؤلفات الجيل الجديد من أدباء تلك المرحلة بين عامي ١٩٢٤-١٩٢٦م، وذلك في الفترة التي انضمت فيها الحجاز إلى نجد وملحقاتها بقيادة الملك (عبد العزيز آل سعود) -رحمه الله-، وهي: (خواطر مصرحة) لـ(محمد حسن عواد)، و(أدب الحجاز) و(المعرض)، لـ (محمد سرور الصبان)، وقد ذاع صيتها ولقيت رواجًا كبيرًا في الأوساط الثقافية، كما وُوجهت بانتقادات لاذعة ولا سيما كتاب (خواطر مصرحة).

يذكر (حمزة شحاتة) عن امتنانه لأثر قيادة (الملك عبد العزيز) في دعم النهضة واستمرار مشروع التحديث من خلال تشجيعه العلماء والأدباء، ورعايته للعلم والمعرفة، واختياره لمسؤولين تنهض البلاد بفكرهم وبصيرتهم، وتنشط المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بعقولهم المبتكرة؛ مثل: اختياره لوزير المالية (الشيخ عبد الله سليمان الحمدان)، إذ يقول: "ولأن من حسنات عاهل العرب الأكبر (عبد العزيز الأول)، ما نراه اليوم من آثار بارزة في نهضة شعبه الكريم، وإصلاح سبيله في الحياة، فإن من أكبر الحسنات ولا شك أن يكون هذا الوزير الخطير، يدًا عاملة لجلالته" (شحاتة، ١٩٧٧، ٥٢)، ويُدرك (شحاتة) أن التحديث لا يُختزل في البعد الأدبي أو الثقافي فحسب، بل هو مشروع حضاري متكامل يشمل الفكر والسياسة والاقتصاد، والمجتمع.

يمثل التحديث حالة من التكامل بين القيادة الواعية والطاقات الفكرية الفاعلة في سبيل تحقيق نهضة حقيقية تتجاوز الجمود والتقليد، وتتجه نحو التجديد والابتكار والبناء المتجدد. وهو -بلا شك- مسار حضاري يتطلب جهودًا متضافرة تسير في طريق الارتقاء والتجديد؛ إذ يقوم مشروع التحديث على نقد الجمود والثبات والتقليد، والدعوة إلى التجديد والتطور والابتكار، ويسلط الضوء على هذه الجهود ويشجعها.

من هذا المنطلق، بدأ جيل الأدباء الرواد مشروعهم التحديثي، وأسهموا في نهضة البلاد من خلال إنتاجهم الفكري والنقدي، معتمدين على ما امتلكوه من أدوات معرفية وثقافية، ومتبعين خطوات واعية في إعادة بناء الفكر الأدبي، أبرزها إدراكهم لخلل منظومة نقل المعرفة التي نشأوا عليها، ثم عودتهم إلى التراث، لاستمداد مقومات النهضة منه، فقد وجد الفكر الأدبي السعودي في الصحافة مجالًا حيويًا للتعبير والنشر والتأثير؛ إذ مثلت الصحف والمجلات المنبر الذي عبر من خلاله الأدباء عن رؤاهم الجديدة.

المبحث الثاني: دور الصحافة في مسيرة التحديث

أما بالنسبة للصحافة فقد كانت داعمًا رئيسًا لنشر آراء الأدباء وأشعارهم وأفكارهم وطموحاتهم، ولعل أشهر صحيفتين يمكن تسليط الضوء عليهما هما صحيفتا: (القِبلة)، و(صوت الحجاز)؛ ذلك لأنهما رافقتا الحراك الثقافي والاجتماعي منذ الإرهاصات الأولى للنهضة والتحديث، ولما كان لهما من صيت وشهرة في البلاد، فقد صدر العدد الأول لجريدة (القِبلة) بصفتها جريدة أساسية رسمية بتاريخ ١٥ شوال ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م، وقد أصابها حظ كبير من عناية كتاب الحجاز والعالم العربي، فقد كانت لهم المنبر الحر الذي أذاعوا من خلاله أروع إنتاجهم القومي، وكانت عامل بعث أدبي وفكري في الحجاز والجزيرة العربية عامة(أمين، ١٩٨٥، ١٠٨-١٠٩)، وكانت صحيفة (أم القرى) ١٩٢٤م، منبر المثقفين المجددين، أما جريدة (صوت الحجاز) فقد صدر العدد الأول منها عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م، وهي جريدة وطنية جامعة، كانت عند إصدارها الأمل بوجود ملاذٍ يحوي آلامهم وآمالهم، وكانت معرضًا لشعرهم ونثرهم. وكذلك صحيفة (المدينة المنورة). أما مجلة (المنهل) ١٩٣٧م، فكانت "صفحاتها معتركًا للأفكار الجديدة في الأدب، والثقافة، والاقتصاد، ومضربًا لفنون من القول، وميدانًا لتجارب جديدة في الشعر والقصة والنقد."(عبد الجبار، بافقيه، ٢٠١٤، ٣٥)، وبذلك كانت الصحافة شريكًا أساسيًا في مشروع التحديث، تنقل صوت الأدباء، وتؤطر حركة التجديد الأدبي في سياق التحول الثقافي الذي شهدته المملكة.

وإذا كانت الصحافة قد أسهمت في توجيه حركة الأدب والثقافة نحو التحديث من خلال توسيع دائرة الحوار الثقافي، فإن هذا الدور لم يكن ليؤتي ثماره لولا الوعي المعرفي الذي امتلكه الأدباء الرواد، والذي مثل: الأساس الفكري والوجداني لمشروع التجديد، فالتحديث الثقافي كان ثمرة لتفاعل عميق بين الفكر والمعرفة، قاد إلى إعادة بناء الذات والوعي المعرفي.

المبحث الثالث: الوعي المعرفي بالتحديث

تعد المرجعية المعرفية والخلفية الثقافية لدى جيل الرواد من أهم الركائز التي اتكأ عليها الأدباء في تحقيق شروط التحديث، وذلك من خلال إعادة تشييد الذات في إطار الخصوصية والواقع الحضاري، إذ تعرف بأنها الحالة التي يتمكن فيها المجتمع من التخلص من المعوقات والقيود التي تعيقه عن الانطلاق، وهي حركة مجتمعية تسعى إلى إكساب الحضارة القومية قدرتها على إنتاج المعارف والمهارات في تعامل متكافئ مع الحضارات الأخرى، فهي المحصلة النهائية لعملية التغيير والنهوض والتحديث (الشربيني، ٢٠٢٠، ٣٦٤).

يشير (الغذامي) إلى أن التحديث الثقافي الواعي في الأدب السعودي لم يكتمل بسبب انكسار (شحاتة) وانسحابه من الحركة الثقافية، وذلك لأنه نموذج مهم له من القوة والعمق ما كان سيكون سببًا لبدء حركة التحديث الثقافي الواعي، وأن أعمال (العواد) لا ترقى إلى مستوى التجديد الإبداعي اللافت، وقد أشار (الغذامي) إلى الريادة التأثيرية، ودورها المحدود في تحديث الثقافة وهيمنة الذهنية المحافظة في المجتمع بقوله: " بأنه لم يكن لها دورٌ تأثيري أو تغييري، وهذا ما يفسر دوام وسيطرة الذهنية المحافظة؛ لأنها لم تجد من يتحداها داخليًا"(الغذامي، ٢٠٠٨، ٦٣). فقد دفعت إلى التساؤل حول أسباب ذلك، ولِمَ كانت الحركة الأدبية في المملكة لا توازي الحركة الأدبية في البلدان العربية الأخرى؟

وقد بدأ البحث من المرجعيات المعرفية والخلفيات الثقافية للأدباء والمفكرين، فتبين أن طرق التعليم وتكون المعرفة والثقافة في: مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق مثلًا يسبق تكونها في الجزيرة العربية بعقود ومراحل سابقة، وذلك لاختلاف الواقع الاجتماعي، والسياق العام للمنطقة أو للأمة العربية. ومع ذلك حاول جيل الرواد جاهدين مسايرة الركب الثقافي العربي، من خلال العودة إلى التراث في علوم اللغة العربية، والنهل من واردات الكتب والمجلات والصحف العربية، كما أن هيمنة النزعة المحافظة أسهمت في تباطؤ الحراك الثقافي في المملكة.

ومن خلال عرض جهود الأدباء الرواد في تحديث الفكر الثقافي في المملكة، يتضح أنهم تمكنوا من إحداث فرق حقيقي في الفكر والثقافة في وطنهم، ومن ثم يبدو أن (الغذامي) كان قاسيًا في حكمه على رواد الأدب السعودي؛ فقد توفرت لديهم في الحقيقة شروط التحديث وأحسنوا توظيفها.

فكل حراك ثقافي أو اجتماعي، وكل نهضة تواجه في بدايتها صعوبات وتحديات، سواءً تمثلت في الرفض والمجابهة من التيار المحافظ، أو في التشتت والاضطراب أثناء التماس الغاية المرجوة.

غير أن أدباء الحجاز المجددين استمروا في مسيرتهم النهضوية بثبات، مجددين في الأساليب الأدبية والنواحي الفنية الشعرية، فضلًا عن نشاطهم في السجالات الصحفية، وتحفيزهم المستمر للشباب الناشئ، وتعبيد الطرق أمامهم بتوفير الكتب العلمية، ورسم الصورة الصحيحة للأدب الجديد في حركة مستمرة وجهود متكاثفة؛ فالوعي المعرفي مهد لظهور نهضة فكرية أسهمت في تحديث الخطاب الأدبي، وقد تجلت ثمرة هذا الوعي في التحول النقدي والثقافي الذي قاده الأدباء المجددون، حين مارسوا الكتابة والنقد والإصلاح الاجتماعي، لقد تجسد الوعي النقدي في مبادرات العواد والصبان وشحاتة، الذين نقلوا الفكر الأدبي من مرحلة التلقي والتقليد إلى مرحلة المشاركة في بناء النهضة الثقافية السعودية.

المبحث الرابع: الوعي النقدي والتحول الثقافي

إن جهود (العواد) و(الصبان) و(شحاتة) التحديثية لم تقتصر على الخطاب الأدبي فحسب، بل تجاوزته إلى ميادين الإصلاح الاجتماعي والفكري، لذا يُمكن اعتبارهم ممثلي الاتجاه التحديثي في نهضة الفكر الأدبي السعودي، وقد جمعتهم رؤية مشتركة في سبيل هذا التجديد، فساروا على خط واحد من الوعي والرغبة الصادقة في تطوير الفكر والثقافة في البلاد، وكانت هذه الرغبة تتجذر فيهم منذ بدايات تكوينهم المعرفي، إذ حرصوا على

الاطلاع على ما يصل إليهم من نتاج الثقافات العربية المجاورة، وهو ما أثار فيهم حافز الغيرة الإيجابية والتطلع إلى مواكبة النهضة الأدبية العربية، وقد عبر (الصبان) عن هذه الرغبة في مقدمة كتابه أدب الحجاز، بقوله: "وإذا كان لنا من أمل نرجوه ونطلب بحرارة أن تحققه لنا الأيام، فلا شيء أكثر من حرية صحيحة، ونهضة صادقة تعيد إلى الحجاز والحجازيين مجدهم المندثر" (الصبان، ١٣٤٤هـ، ٦).

من أبرز وسائل الأدباء الرواد للنهوض الأدبي عودتهم إلى الماضي لاستلهام القوة والإلهام منه، فنهلوا من التراث الأصيل، وأعادوا تمثله بطريقة جديدة مبتكرة بعيدة عن التقليد والجمود، ثم وجهوا نقدهم لطرائق التعليم السائدة آنذاك؛ إذ انتقد (الصبان) العلماء والمعلمين، لابتعادهم عن الجوانب الأدبية في التعليم، مشيرًا إلى أنه حين كان شابًا متعطشًا للأدب لم يجد في بيئته التعليمية ما يشبع شغفه؛ فقد كان الأدب غريبًا والأديب يُنظر إليه نظرة ازدراء وابتذال، وأما قرض الشعر وروايته والنظر في كتب الأدب، كان الاشتغال بها، مما لا يليق والترفع عنها من الكرامة (الصبان، ١٣٤٤هـ، ٣)، فالتحديث يكون بالعودة إلى التراث وتأصيله بما فيه من مرجعيات ثقافية يمكن أن تستقى منها مقومات التجديد، فالجهد الفردي لا يصنع نهضة، ولا يكتمل به مشروع تحديثي؛ إذ إن إدراكهم لأهمية التكاثف والتساند كان سبيلهم لبلوغ غايتهم المرجوة

وقد حرص (العواد) في عودته إلى التراث على اقتناء الكتب وقراءتها منذ صباه، وفي هذا السياق يذكر الكتب التي قرأها في مطلع حياته منها: كتاب المستطرف، وإعلام الناس، وديوان المتنبي، والبهاء زهير.... وبعض معاجم اللغة، ولزوميات المعري، ودواوين ابن الرومي، والبحتري، وأبي تمام، وبشار، وأبي نواس، وغيرهم[1](عواد، ١٩٧٩، ٢٤٦، نقلًا عن المحمود، ٢٠١٧، ١٢٢).

إن إدراك الخلل والسعي إلى إصلاحه يمثل أولى خطوات التغيير، وجهدًا واعيًا لبعث الحيوية في الأدب بعد ركوده. وقد تسلح جيل الرواد بأدوات ثقافية جديدة، من خلال تكوين هوية فكرية تستمد عناصرها من التراث، وتنفتح على الثقافة الحديثة، مما أشعل فيهم شعورًا بالمسؤولية تجاه واقع الأمة، والرغبة في التطوير ومواكبة الركب، فبدأوا بنشر هذه الثقافة في الشعر، والصحافة، وتأليف الكتب، واستيرادها من مصر، لتكون نموذجًا يحتذي به الشباب الناشئ في إحداث التغيير والتحديث الثقافي.

من هذا المنطلق، جاءت حركة إنشاء المكتبات امتدادًا لوعي نقدي وثقافي سعى إلى تحرير التراث، وإعادة توظيفه في مشروع التحديث الأدبي والفكري، فقد كانت مكة والمدينة من أكثر المدن الزاخرة بالمكتبات وذخائر المخطوطات، ويعزى هذا الازدهار إلى عادة إسلامية قديمة، إذ كان الحكام والزعماء والأدباء يهدون نفائس الكتب التي كانت تحفظ في صوانات (دواليب) بداخل المسجد الحرام والمسجد النبوي، ومع تعاقب العصور تأسست مكتبات كثيرة حتى أمر (السلطان عبد المجيد) بإرسال خزانة كتب نفيسة تضم (٣٦٥٣) كتابًا، كما أنشأ المهتمون بنشر العلوم والثقافة عددًا من المكتبات الخاصة، وكان من أبرز الأدباء الذين أسهموا في إنشاء المكتبات

(١) عواد، محمد حسن. (١٩٧٩). **رؤى أبولون**، ج٢، ط١، القاهرة، دار العلم العربي،٢٤٦، نقلًا عن: صالح بن عبد العزيز المحمود، محمد حسن عواد " أسئلة الريادة والإبداع".

ونشر الثقافة: (محمد سرور الصبان)، و(أحمد إبراهيم الغزاوي)، و(العامودي)، و(فودة)، و(العطار)، و(آشي) (عبدالجبار، د.ت،١٨٦)، فكان اهتمامهم بالكتب القديمة والمخطوطات، وحرصهم على اقتنائها وتصنيفها، نوعًا من الفعل التأصيلي الذي منح مشروعهم الثقافي أصالة واستمرارية.

انطلق مشروع التحديث من وعي عميق وإدراك ناضج لدى الأدباء الرواد بأن التجديد لا يتحقق بخطاب فردي، بل بجهود جماعية متضافرة، تقوم على بناء واعٍ يستند إلى مراجعة التراث وتمحيصه، وتحريره من جمود التقليد، وإعادة إنتاجه، ليتناسب مع الحاضر، واستلهام أفكاره ونقدها، بذا كان الوعي بالتجديد أحد أهم الأسس التي نهض عليها مشروع التحديث الأدبي والثقافي، موازنًا بين الأصالة والمعاصرة، وقد تمثلت هذه الأسس والمقومات في عدة نواحٍ منها:

١- **الثورة على التعليم**: شكلت الثورة على التعليم أحد الأسس في مشروع التحديث لدى الأدباء الرواد، حين أدركوا أن إصلاح الواقع الثقافي لا يتحقق من دون تجديد مناهج التعليم وأساليبه، فعبّروا عن نقدهم للتعليم من خلال الكتابة والنشر والتأليف، من خلال مقالاتهم وخطاباتهم الصحفية، وعن غايتهم الإصلاحية التي انطلقت من معايشة مباشرة لواقع التعليم ومشكلاته.

يحكي (**العواد**) عن تجربته في التعليم، فيقول: "إن مدرسة الفلاح، في تلك الفترة، كانت تدرس الدين بطريقة بها شيء من الخرافات، فكنت وزملائي من الطلبة نرتاد مكتبة (الشيخ محمد أفندي نصيف) للقراءة...." (ياسين، ٢٠١٢، ٢٩) ثم عن تعليمه يقول: "تعلمت دروسًا بسيطة جدًا من الإنشاء .... نعم أقول بسيطة بكل ما في معنى كلمة البساطة من معنى؛ لأنها ما كانت تسمح لي تلك الدروس بإعطاء أفكار مستقلة في الأدب، أو في السياسة، أو في الاجتماع، ولا كانت تسمح لي بتكوين فكرة بسيطة نظرية أو عملية أيضًا في هذه الشؤون، لذلك لم أكن أعرف شيئًا يدعى البلاغة العربية – وهذا طبيعي ومعقول"(ياسين، ٢٠١٢، ٧١).

٢- **الثورة على الأساليب الشعرية التقليدية**: امتد الوعي التحديثي لدى الأدباء إلى الشعر وأساليبه، حيث ثاروا على القصيدة التقليدية التي حافظت على شكل القصيدة من ألفاظ جامدة ومعانٍ هزيلة وصور تخلو من الخيال، فدعا هؤلاء الأدباء إلى تجديد الشعر في بنائه ومعجمه، وأن تكون موضوعاته تعبر عن حاضرهم وتفتح الطريق أمام تجربة شعرية جديدة مبتكرة تدعو إلى تنوع القوافي، وتسعى إلى تحقيق الوحدة العضوية. يتحدث (العواد) في ديوانه آماس وأطلاس عن جهوده في التجديد فيقول: "جاهدنا في تجديد الشعر، وتحديد فهمه ومقاييسه لهذا الجيل... واستطعنا أن نوجه بعض شعراء هذه البلاد بدراستنا وأمثلة شعرنا إلى الطريق الفنية الصحيحة فانتقل الذوق الشعري، بل الذوق الأدبي كله من دائرة اللفظ المرصوف... إلى الشعر الموهوب بفضل هذا التجديد فكرة وشعورًا وحياة نابغة تحس بها نفس إنسانية مستقلة الوجود" (عوّاد، ١٩٥٢، ١١).

٣- **التأثر بالثقافة العربية**: تأثر الأدباء في بدايات النهضة الأدبية تأثرًا واضحًا بالأدب العربي في مصر وسائر البلاد العربية مثل أدباء المهجر وغيرهم، حيث وجدوا في أدبهم نموذجًا للتجديد الأدبي والانفتاح الفكري، وقد أثارت تلك التجارب فيهم شعورًا بالمنافسة والغبطة، فاندفعوا نحو تجديد الأدب في الجزيرة العربية، ساعين إلى الارتقاء بمستواه شكلًا ومضمونًا.

لقد أسهمت ثقافة مصر وما صاحبها من تعدد في التيارات الفكرية والمناهج النقدية، إلى جانب تنوع مصادر التلقي من الأدب العربي والغربي، في تشكيل وعيهم الأدبي وتلوين نتاجهم بأساليب جديدة تعكس روح المرحلة، وبهذا التفاعل الثقافي تبلورت سمات مرحلة التحديث في الأدب السعودي. أما (حمزة شحاتة) فيرى أن التأثر بالثقافة العربية، بوصفها نتاجًا طبيعيًا لاتساع أفق المعرفة، وانتشار وسائل التعلم، وتفاعل الثقافات، "إنما هو أثر انتشار الثقافة، وتهيؤ أسباب العلم بمستجدات العقل والفكر والصناعة والفنون، وتوثيق الصلات الفكرية والأدبية، وتوحد اللغة والدين، وتقارب الطباع، والأمزجة"(شحاتة، ١٩٧٧، ٢).

٤- **الإصلاح الاجتماعي**: اتجهت جهود الرواد بعد ذلك نحو الإصلاح الاجتماعي بوصفه امتدادًا طبيعيًا لوعيهم بواقع الأدب والتحديث، فعبروا عن رؤاهم الإصلاحية من خلال تضمين قضايا المجتمع في نتاجهم الأدبي، ولا سيما الشعر، فقد أصبحت قصائدهم مرآة لواقعهم الاجتماعي، مثل الاهتمام بقضايا التعليم، والمرأة، واللغات، والنهضة الأخلاقية، والفكرية. ويبرز في هذا السياق دور (محمد سرور الصبان) الذي أسهم في ترسيخ الوعي الثقافي الحديث ونشر الفكر الأدبي المتجدد بين الناشئة من خلال تأسيس (المكتبة الحجازية) التي كانت من أهم المنارات الثقافية آنذاك. كما ألف كتابي (أدب الحجاز)، و(المعرض)، إلى جانب تقلده عددًا من المناصب الإدارية التي وظفها لخدمة الثقافة والتعليم، فالنهضة والإصلاح الحقيقي هدف سعى إليه رواد الحركة الأدبية، يقول (الصبان) منتقدًا المرائين في الإصلاح:" سيروا بنا نتنافس في جلب المفيد للأمة.! وحينذاك نرتقي في مدارج الرفعة متنقلين من الصالح إلى الأصلح حتى نصل إلى درجة الكمال، وذلك هو الإصلاح المنشود.!"(عبد المقصود، وبلخير، ١٩٨٣، ٣٩٥).

أما (العواد) فقد اشتمل كتاب (خواطر مصرحة) على عدة قضايا فكرية واجتماعية، فانتقد أساليب التعليم والعلماء وطرائق الشعراء، ودعا إلى تجديد الأساليب الشعرية، والإصلاح الاجتماعي، وضرورة تعلم اللغات الأجنبية، وتعليم المرأة، وغيرها من الموضوعات التي تلامس مجتمعه آنذاك، أما شحاتة فقد كانت محاضرته في جمعية الإسعاف مثالًا لا ينسى بين الأجيال في النقد الصريح، والتنوير الثقافي، فقد كان له دور في الإصلاح الأدبي والفكري نجده جليًا في محاضرته (الرجولة عماد الخلق الفاضل)، التي حذر فيها من الجمود الذهني، مؤكدًا أن الإصلاح يبدأ من الداخل، ويدعو إلى تدريب العقل على التأمل والفهم، وتجاوز الاقتصار على التلقين.

المبحث الخامس: نقد الواقع وبناء الذات: نحو وعي أدبي حديث

بدأت إرهاصات النهضة الأدبية منذ وقت مبكر من تاريخ الأدب العربي الحديث؛ إذ كان الأدب في تلك المرحلة يتسم بالضعف، معانيه هزيلة، وألفاظه ركيكة تتنافس في توظيف المحسنات البديعية على جوهر المضمون، إلى أن ظهرت بعض الإرهاصات التجديدية قبيل تشكل الأدب الحجازي الحديث بوجه خاص، وأدب قلب الجزيرة بشكل عام.

تتجلى ملامح هذا التجديد في نتاج (إبراهيم الإسكوبي) في تناوله لوصف المخترعات الحديثة، والشعر السياسي، وفي شعر (عبد المحسن الصحاف) الذي حرص على العودة إلى أصول الشعر العربي القديم محافظًا على

نهجه وأسلوبه، بروحٍ جديدة تعكس وعيًا متناميًا بضرورة النهوض بالأدب، فقد مثلًا امتدادًا للشعر التقليدي، مع السعي لتجديد ألفاظه ومعانيه وموضوعاته.

ويُعد الصحاف آخر شعراء المرحلة التقليدية الذين مهدوا الطريق للانتقال إلى طور أكثر نضجًا، حيث جدد في الموضوعات والأفكار، مع التزامه بالبنية القديمة في الوزن والقافية، كما نجد ذلك عند الشاعر (أحمد الغزاوي) الذي وسع دائرة التجديد، لتشمل موضوعات وطنية، وإسلامية، وتاريخية، واجتماعية، واتجاهات إبداعية مثل كتابة القصة الشعرية، وتنوع القوافي(الفوزان،١٩٨١، ١٢٣٢-١٢٦٢).

أما (محمد سرور الصبان) فكان من أبرز الشعراء الاتباعيين، ولكن مع الحرص على شخصيته كما يرى (أبو شادي)، فقد أصدر مجموعة شعرية ونثرية سلط فيها الضوء على أدباء الحجاز وأعمالهم الأدبية، ساعيًا إلى إظهار صورة المثقف السعودي الجديد الذي ينشد العلم والمعرفة، ويطمح لمواكبة أبناء البلاد العربية الأخرى في اليقظة الفكرية، ويذكر بعضًا من نماذج شعره إذ يقول:

من لي بشعب نابه متيقظ ثبت الجنان وصادق العزمات
من لي بشعب عالم متنور يسعى لهدم رذائل العادات
من لي بشعب باسل متحمس حتى تقول بأعظم النهضات
من لي بشعب لا يكل ولا ينـي يسعى إلى العليا بكل ثبات

(الفوزان، ١٩٨١، ٨١).

ويدعو (العواد) الشعراء إلى التوقف عن نظم القصائد التي تهتم بالشكل في التخميس والتشطير وغيره، مما يعتمدون عليه في نظمهم في مقالة (أيها المتشاعرون)، ويختمها بقوله: " ليس الشعر ألفاظًا ومعانٍ فقط وإنما الشعر أمر آخر وراء الألفاظ والمعاني، وفوق الأفكار والتعابير" (ياسين، ٢٠١٢، ٨٠).

كما سعى (العواد) من خلال خطابه الأدبي في الصحافة إلى تحديث الشعر من خلال ترويج الأساليب الشعرية الجديدة، عن طريق المساجلات الأدبية، وذكر في خواطره (خاطر من الشعر- مع الورقاء) قصيدة هي إحدى المساجلات الأدبية التي دارت بينه وبين الأديب عمر أفندي، وكان الغرض منها ترويج الأساليب العصرية في الأدب الحجازي، وقد أرسل الآخر قصيدة لمحاكاتها هي قصيدة (قلب المحب). يقول (العواد):

غاية الأيك سقاك السحابْ
نوّحي معي قد راقني الانتحابْ
وحركي المغرم في وجده
فالحب أضناه (ياسين، ٢٠١٢، ١٤٧)

ويرى (العواد) أن: "طبيعة الأدب واحدة وهي "فكر مبدع في أداء ممتاز" يتأثر بعوامل داخلية وخارجية ترجع إلى جودة وبراعة التصوير وأصالة التفكير، وعمق الشعور، والمقدرة على استيعاب العوامل الاجتماعية والعوامل الفردية التي تغذي الأدب وتنميه. وهذه العوامل هي شخصية الأديب، وسعة ثقافته، وسمو أفكاره، وعمق عاطفته

وجمال أسلوبه.. هذه الأشياء مجتمعة هي التي تضفي على الإنتاج الأدبي قوته، وعمقه، وسموه وروعته (الفوزان، ١٩٨١، ١٠٥٨).

أما بالنسبة للتحديث الأدبي، فقد سعى (حمزة شحاتة) إلى ابتكار أشكال جديدة في الكتابة الأدبية دون أن يقع في تقليد مباشر للغرب، على الرغم من اطلاعه الواسع على آدابهم، فقد استحدث نوعًا أدبيًا جديدًا في عمله (حمار حمزة شحاتة)، استعار فيها شخصية الحمار رمزًا تعبيريًا، وظفه برؤية فلسفية ناقدة، وتعد هذه الاستعارة امتدادًا لتراث عربي قديم سبق فيه بعض الكتاب إلى توظيف الحيوان رمزيًا، غير أن (شحاتة) قدم رؤيته من زاوية إنسانية ناضجة، إذ نظر إلى الحمار نظرة تقدير واحترام، بوصفه مجتهدًا مثابرًا يتعلم بالصبر والتكرار، ويعمل في صمت وجد، في مقابل صورة الإنسان الخاضع للجمود والتقليد والتبعية، وقد يلاحظ أن هذا العمل صدى لرواية (حمار الحكيم) لـ (توفيق الحكيم) الذي نشره عام ١٩٤٠، التي سبقته إلى معالجة الفكرة نفسها، مما يحتمل أن يكون شحاتة قد تأثر بها بعد انتقاله إلى مصر سنة ١٩٤٦م، وإقامته فيها حتى وفاته، حيث انفتح على بيئة فكرية كانت رواية الحكيم جزءًا منها.

أما (حمزة شحاتة) – الشاعر البارز الذي نهل بتميز عصري من تراث الحداثة الشعرية العربية القديمة، والكاتب المبدع في أسلوبه البياني المعاصر– فقد نهل من منابع الفكر والفلسفة النهضوية الأوربية التي وصلتنا عبر أبرز الكتاب، والأدباء العرب المتأثرين بمضامينها. ويمكن عده أقرب إلى التنوير البريطاني النقدي والإصلاحي الذي جعل من الفضائل والتعاون والضمير مسارًا رحبًا (الدميني، ٢٠١٦).

فقد نهل هؤلاء الأدباء من منابع معرفية متعددة؛ استلهموا التراث العربي القديم بوصفه الأساس الأصيل لأي تجديد، وانفتحوا على مؤلفات المثقفين في البلاد العربية المجاورة، كما اطلعوا على تراجم الفكر الغربي التي عرفت بالتيارات الفلسفية والأدبية الحديثة. هذا التنوع المعرفي منحهم رؤية نقدية خاصة، وأسهم في بناء وعي ثقافي متوازن يجمع بين الأصالة والانفتاح، فكان منطلقًا لبلورة مشروع أدبي وفكري يسعى إلى تجاوز الجمود، وإرساء نهضة ثقافية حديثة.

المبحث السادس: حدود التلقي: المناهج الغربية في الأدب السعودي

لقد مكَّن التحديث رواد الأدب السعودي من الوعي بخصوصية الهوية العربية وتحيزات النماذج الغربية، وذلك لما في التحديث من أساس ثابت يتصل بالتراث لا ينفصل عنه، والحقيقة أن وعي الأدباء الرواد في العالم العربي بتحيزات الحضارة الغربية لمناهجها، والاختلاف الثقافي بين الأمم كان جليًا ظاهرًا في كتاباتهم، ذلك أن (العواد) يعرض لآراء (طه حسين)، و(العقاد) في المناهج الغربية، ويميل لرأي (العقاد)، ويشيد به مفصلًا في المقارنة بين اختلافهما في هضم هذه المذاهب، فالعقاد ينقد ويبرهن التباين الجلي في اختلاف الثقافتين: العربية والغربية بينما (طه حسين)، ينبهر بهذه الآراء حد القداسة، يقول (العواد) بعد استعراض آرائهما بالتفصيل: "وبعد هذا الاستعراض الدقيق والنقد العلمي الرائع يخرج العقاد بخلاصة مرضية لهذه الآراء يقدمها عقله الجبار في ألفاظ وجيزة (وخلاصة هذه الآراء أن الإنسان مشخص برغمه، فهو إذا مثل قوة مجردة أو وهبها زيه يسيطر عليها زواله ويحلها

أعماله)، ثم ينقد (العواد) (طه حسين) في تبجيله لهذه المذاهب ونقله نقلًا ناسخًا يخلو من الابتداع، والتجديد فيقول: "نجد أن هذا يكتب على غير هذا النمط "الابتداعي" فنراه يجامل المناهج والمذاهب، ويكاد يتعبدها استجابة من عقله الباطن "لروتين" الدراسة الجامعية"(الساسي،١٩٧٥، ١٨).

وقد أشار (عبد الله عبد الجبار) في مقدمة كتاب (حمار حمزة شحاتة) إلى أن (حمزة شحاتة) لم يتأثر تأثيرًا مباشرًا بكتاب (خواطر حمار) (للكونتيس دوسيجور)، مؤكدًا أن عمله لم يكن اقتباسًا ولا محاكاة، بل إبداعًا يعكس ثقافة متجددة ووعيًا نقديًا واعيًا بحدود التأثر ومجالات الإبداع (شحاتة، ١٩٧٧، ٢).

تتضح المرجعيات المعرفية (لحمزة شحاتة) من خلال ما أورده (عزيز ضياء) الذي يذكر أنه تدارس مع (شحاتة) كتاب (السياسة) (لأرسطو) بترجمة (لطفي السيد باشا) سنة ١٩٤٧م، وأبديا معًا إعجابهما بمقدمة المترجم الفرنسي (سانت بهيلير)، وهو ما يعكس انفتاحهما على الفكر الفلسفي والسياسي الغربي في وقت مبكر، كما اهتما بقراءة القصص المترجمة التي شكلت قاعدة معرفية خصبة، مثل: قصة (الطبيعة) التي ترجمها (المازني)، وأعمال (أناتول فرانس)، ومنها (تابيس) و(الزنبقة الحمراء)، وغيرها من نتاجه الأدبي الذي كان موضع تأمل وتحليل لديهما.

كما يذكر (ضياء) أنهما كونا حصيلة فكرية لا بأس بها عن كثير من المفكرين والأدباء العرب والغربيين، وأن اطلاعهما على أدب المهجر أيقظ فيهما الحس الفني والوجداني، لكنه لم يكن كافيًا لتنمية الفكر والثقافة، ومن هنا يمكن القول إن مشروع التحديث لدى (شحاتة) تجاوز الأدب بمعناه الفني والجمالي إلى آفاق أوسع من الفكر والفلسفة، إذ سعى إلى بناء وعي نقدي جديد قادر على إدراك قيمة المعرفة بوصفها شرطًا للنهضة والتجديد، يقول في دعوته للتجديد والتطور ومواكبة التغيير: " فالحياة –كما قلنا– حياة بالتغيير الدائم، والتجديد المستمر والتطور إلى أرقى وأكمل معانيها وحوافزها وأفتن مظاهر جمالها، بل هو معنى الجمال وسره فيها والسعادة — في رأينا — هي المرة المتجددة" (شحاتة، ١٩٧٧، ٥٩).

وعن تشكل الوعي لدى أدباء العربية والتحديث في الثقافة العربية يتحدث (عبد القدوس الأنصاري) في نهضة الأدب العربي عن ظاهرة مجيدة: "هذه الظاهرة الجديدة تتمثل في هذا الانتقال الميمون الذي نشاهده ونسر به اليوم في أفكار أدباء العربية من ناحية العناية بالحضارة الغربية والافتتان بها، إلى ناحية الاهتمام بدرس المدنية الإسلامية ونبث دفائنها الرائعة وإلباسها ثوبًا قشيبًا، والبحث عن تراثها القيم"(عبد المقصود، وبلخير،١٩٨٣، ٢٥٥).

(عبد الله عبد الجبار) في حديثه عن أثر البيئة في شعر الجزيرة يقتبس حديث الأديب (محمد حسنين هيكل): "وهذا ما لم نصل نحن إليه في بلد الشرق العربي فنحن ما نزال عند الأمور العامة من الإصلاح، ولا نزال ننقل عن الغرب ما أبدع من نظم دون التعمق في بحث هذه النظم من حيث ملاءمتها لبيئتنا الطبيعية". (عبد الجبار،١٩٥٤، ٢١٤) في اقتباسه هذا وعي وإدراك بتحيزات الغرب، وهذا الوعي الذي كان يتمتع به أدباء المرحلة الأولى وهو جزء من التحديث الذي يختلف عن الحداثة في المساءلة النقدية، وإدراك الاختلاف الثقافي والخصوصية العربية.

يرى (الحازمي) أن استيحاء النماذج الغربية من قِبَل أدبائنا لم تكن منقطعة، بل كانت من الأمور المألوفة في صحافتنا المحلية خلال هذه الفترة، فكانوا يعيدون صياغة القصائد المترجمة، ويكتبون عنها، ويلخصون الكتب وينقدونها، ويعلقون على طريقة الترجمة والمبالغة في العناية بالألفاظ.(الحازمي،١٩٧٥، ١٩)، ويقول عن تأثرهم بالأدب الغربي: "، ومع ذلك فإن ما يحمد للرعيل الأول من أدبائنا حرصهم على تطعيم أدبهم المحلي بالأفكار والاتجاهات الغربية الجديدة، رغم جهل معظمهم باللغات التي مكنت لأشقائهم العرب... وإذا كنا لن نستطيع في هذا البحث تتبع آثار الترجمة في إنتاج أدبائنا، فلا أقلَّ من أن نشير إلى الواضح منها، وتتمثل أكثر ما تتمثل قي معارضة الآثار الغربية، أو إعادة صياغتها، أو عرضها والتعليق عليها، وقد كانت الطريقتان الأخيرتان أكثر الاتجاهات شيوعًا بين أدبائنا الذين كانوا ينحون نحو التجديد خلال هذه الفترة" (الحازمي،١٩٧٥، ١٢– ٢٠).

وقد شاطره (عبد القدوس الأنصاري) الرأي نفسه في قوله: "وكذلك كان الأدب العربي الناهض منذ نشأته إلى ما قبل زمن وجيز، فلما سرى روح اليقظة في الأمة العربية، وأجمعت على أن تطرح عن كاهلها أعباء التقليد الأعمى للغرب، وأقسمت أن تَتَبوَّأ مكانةً تحت الشمس؛ لذلك كان لزامًا على الأدب أن يتجه وجهةً جديدة" (عبد المقصود، ١٩٨٣، ٢٥٧).

خاتمة:

لقد كشف هذا البحث جهود الأدباء الرواد في تشكل التحديث الثقافي والفكري في المملكة العربية السعودية، وهو مشروعٌ اتخذ من التراث ومساءلته ونقده بعدًا معرفيًا وتاريخيًا، وامتدادًا للوعي بطبيعة الواقع الحضاري، وقصوره وجموده، وضرورة تجديده وتحديثه. لقد انفتح هؤلاء الأدباء على ثقافة الآخر وتفاعلوا معها تفاعلًا ثقافيًا، مكنهم من صياغة فكر جديد يتسق مع متطلبات النهضة الحضارية للبلاد.

وقد تبلور وعيهم بالتحديث بوصفه عملية شاملة تنبع من الذات الثقافية، وتستند إلى التراث بوصفه مرجعية راسخة لبناء المعرفة، وتسعى إلى التحضير المعرفي للنهضة من خلال نقد التقليد والانفتاح على مصادر الفكر المعاصر في الثقافتين العربية والغربية، كما أدركوا أن النهضة لا تقوم إلا على أساس حضاري يستمد أصالته من موروث الأمة ويستجيب لروح العصر.

ولتحقيق هذا الوعي، تنوعت جهودهم بين إصلاح التعليم وتجديد الشعر والنهوض باللغة العربية، وتعزيز السياق الثقافي المحلي ضمن الأطر الفكرية الحديثة، وقد جسدوا ذلك عبر ممارسات ثقافية متعددة؛ شملت الكتابة والتأليف والنشر، والسجالات الصحفية، والنقد الثقافي والاجتماعي، إلى جانب اهتمامهم بالشباب، وتفعيل دورهم الثقافي، واستيراد الكتب والمجلات، وفتح آفاق جديدة للأدب.

من خلال تتبع مسار الأدباء الرواد في تلك المرحلة، يتضح أن همومهم الثقافية والاجتماعية كانت متقاربة ومتداخلة، كما تشابهت رؤاهم في العديد من الاتجاهات الفنية والفكرية، وجمعتهم مرجعية معرفية وثقافية مشتركة، رغم تنوع منابعهم الفردية في التكوين المعرفي والاطلاع الثقافي.

إن التحديث لا يعني القطيعة مع الماضي، بل هو استعادة للماضي وبنائه في الحاضر، وهذه الظاهرة لا ترفض المثاقفة مع الغرب، ولكنها توازن بين الماضي والتراث والحاضر والتجديد، وتسعى إلى إحياء كتب التراث وتقصيها

وإعادة تأليفها ونشرها برؤية حضارية حديثة، فهذه الظاهرة الحميدة تمثل الوعي بالذات الحضارية العربية والإسلامية، وأن أفضل من يدعم الأدباء والمفكرين في انتعاش هذه الظاهرة هي المؤسسات الثقافية، مثل: المكتبات، والصحف، والمجلات، والإذاعة.

تبين خاتمة دراستي هذه أن هذا التحديث لم يقم على قطيعة مع التراث، بل على استيعاب نقدي له ولهويته، مما أسهم في توليد نهضة ثقافية جديدة.

المراجع:

إبراهيم، عبد الله. (٢٠٠٤). **المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية**. ط١، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أمين، بكري شيخ. (١٩٨٥). **الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية**، ط٤، بيروت: دار العلم للملايين.

بافقيه، حسين محمد. (٢٠١٤). **العيش في الكتابة، دراسة في نقد عبد الله عبد الجبار**. ط١، بيروت: دار المؤلف للنشر والطباعة.

بوزبرة، عبد السلام. (٢٠١١) **طه عبد الرحمن ونقد الحداثة**. ط١، بيروت: جداول للنشر والتوزيع.

الجابري، محمد عابد (٢٠١٥). **التراث والحداثة**. ط٥، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الحازمي، منصور إبراهيم (١٩٧٥). **معالم التجديد في الأدب السعودي بين الحربين العالميتين**. الرياض: دارة الملك عبد العزيز، يونيو، ١(٢).

الحامد، عبد الله. (١٤٠٢هـ). **في الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية**. ط١، المملكة العربية السعودية: مكتبة كلية الآداب للبنات بالدمام.

حمودة، عبد العزيز. (١٩٩٨). **المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة).

الدميني، علي. (٢٠١٦). **على دروب التنوير والحداثة حمزة شحاتة وعبد الله عبد الجبار. مجلة الفيصل**، ٣٠ أغسطس، الرياض.

الساسي، عبد السلام طاهر. (١٩٥٧). **نظرات جديدة في الأدب المقارن وبعض المساجلات الشعرية**. ط١، القاهرة: دار ممفيس للطباعة.

سمير، حميد. (٢٠٠٩). **خطاب الحداثة قراءة نقدية**. ط١، الكويت: آفاق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

سمير، حميد. (٢٠١٧). **نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث**. ط١، الخُبَر: تكوين للدراسات والأبحاث.

شحاتة، حمزة. (١٩٧٧)، **حمار حمزة شحاتة**. ط١، الرياض: دار المريخ.

شحاتة، حمزة. (١٩٧٧). **قمة عرفت ولم تكتشف**. ط١، المملكة العربية السعودية: تهامة للإعلان.

الشربيني، علا عزمي. (٢٠٢٠). القول بين التحديث والحداثة والمعاصرة. **مجلة كلية التربية بالمنصورة**، ١(١٠٩)، مصر.

الصبان، محمد سرور. (١٣٤٤هـ). **أدب الحجاز، أو صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية**. مصر: المطبعة العربية.

الصبحي، ابتسام علي. (٢٠٢٢). المرجعيات الثقافية ودورها في تشكيل الدلالة بين مؤثثات التأصيل ومنطلقات التجريب –قراءة سيميولوجية في شعر جاسم الصحيح. **مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية**، ٣٠ (١).

عبد الجبار، عبد الله. (١٩٥٤). **التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية**. ط١، القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية.

عبد المقصود، محمد سعيد، وبلخير، عبد الله. (١٩٨٣). **وحي الصحراء صفحة من الأدب العصري في الحجاز**. ط٢، جدة: الناشر عبد المقصود محمد سعيد.

العشي، عبد الله. (٢٠١٣). مآزق التحديث في النقد الأدبي المعاصر، علامات في النقد. **النادي الثقافي بجدة**، (٧٦)، أغسطس، المملكة العربية السعودية.

عواد، محمد حسن (١٩٥٢). **آماس وأطلاس**. لبنان.

عواد، محمد حسن. (١٩٢٤/٢٠١٢). **خواطر مصرحة**. قدمه حسين محمد بافقيه، ط٢ بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع.

الغذامي، عبد الله. (٢٠٠٨). **حكاية الحداثة**. ط٤، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

الفوزان، إبراهيم. (١٩٨١). **الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد**، ج١، ط١، مصر: القاهرة، مطبعة الخانجي للطباعة والنشر.

المحمود، صالح بن عبد العزيز. (٢٠١٧). محمد حسن عواد: أسئلة الريادة والإبداع. **مجلة العلوم العربية والإنسانية**، ١١(١).